فصلنامه مطالعات علوم اجتماعی
دوره ۸، شماره ۴، زمستان ۱۴۰۱
صفحات ۲۴۰-۲۵۳
Print ISSN: 2476-5274
www.uctjournals.com

وطن دوستی در شعر معروف رصافی وخلیل الله خلیلی
(مطالعه تحلیلی تطبیقی)

عبدالرحمن «ندیم»
استادیار گروه زبان عربی دانشگاه بلخ. _ افغانستان

چکیده

جاي شك نيست كه شعر يكي از ابزار های تاثیر گذار، برای بیدار گری جامعه ونسل بشر است. و تمامی اغراض و مقاصد ذهنی انسان، در قالب این کلام جادویی تحقق می یابد. یکی از موضوعاتی که شعرا به آن پرداخته اند عبارت از وطن دوستی است، که این موضوع توجه خیلی از شعرا ونویسندگان معاصر را بخود جلب کرده است، از ویژه گی های این نوع شعر صداقت واخلاص شاعر نسبت به محتوای شعر است، وبخش بزرگی از دیوان های شعری شعرای مسلمان، مملو از همین گونه شعر است. از آن جایی که وطن در شریعت مقدس ما از تقدس ویژۀ برخور دارست؛ اسلام هم برای وطن جایگاه بلندی قایل است. زیرا مناسبت وطن نسبت به شهر وندانش مانند مناسبت مادر به فرزند است. پس هر آنچی که متعلق به وطن است برای همه فرزندانش حائز اهمیت است، در هرجا وسر زمینی که باشند.

شاعران وطن دوست آنانی که باروی کردهای گوناگون وشیوه های مختلف به ذکر و توصیف وطن می پردازند، از جمله میتوان شاعر نام دار وملی عراق معروف رصافی وهمچنان شاعر بیدار گر افغانی خلیل الله خلیلی را نام برد. دو شاعری که هردو در یک دوره زمانی زیسته اند، روشها وموضوعات شعری شان خیلی ها به هم شباهت دارد، وآن عبارت است از ایجاد حس بیداری وهوشیاری برای فرزندان ونسل آیندۀ وطن است. باید دانست که موضوع وطن دوستی وتشویق برای آبادی وطن، از موضوعاتی است که اسلام هم به آن تاکید نموده است؛ واین امر در واقع یکی از قضایایی است که این دو شاعر بیشتر عمر خودرا مشغول این امر ساخته اند، وبخش بزرگ دیوان شعری ایشان، به آن اختصاص یافته است.

كلمات كليدي: معروف رصافي، خليل الله خليلي، وطن دوستي، مقارنه.

مقدمه

الحمد لله رب العالمين ، إيّاه نعبد و إيّاه نستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، المنزل عليه القرآن، فيه شفاء و هدى و رحمة و ذكرى للعالمين.

التعريف بالموضوع وأهميته:

إنّ الشعر الوطني يُعدّ من الموضوعات التي راجت لدى الشعراء المعاصرين الذين يتمتّعون بمشاعر حسّاسة تجاه أوطانهم وبهذا يشاطرون الوطن بقضاياه الاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها من الأمور التي تمت بصلة إلى الوطن والمأوى، وذلك مثل: حبّ الوطن والحنين إليه و إثارة روح المقاومة لدى أبنائه والحفاظ عليه ونكبة الاستعمار وإثارة غضب الشعوب واستنكارهم للاستعمار الخارجيّ، والمصطلح وإن كان قديما من ناحية المعنى يعرفه الإنسان منذ أن استوطن الأرض، ولكنّ الذي يُفضي إلى المكث والتأمّل هو أنّ الأغراض التي يُتمثّل فيها هذا النوع من الأدب جديدة تتطلّب منّا الباحثين والقراء أن يُكشَف القناعُ عن وجهها.

وترجع أهميّة البحث إلى أنّ الحديث يدور حول الوطن، ومفاخره وأعلامه، وكلّ هذه مقولات تقتضي اهتماما مبالغا فيه في أيّ ثقافة كانت، دعك عن الثقافة والفكر الإسلاميّ، وذلك؛ لأنّ الوطن هو المكان الذي يولد فيه الإنسان ويترعرع في أحضانه، فهو كالأمّ التي ترعى الإنسان، فهو الأمن والسكينة وهوالانتماء، وحبّ الوطن يدفع المرء إلى الجدّ والحرص على طلب العلم والسعي لأجله، كي يصبح يوماً ما شاباً نافعاً يخدم وطنه، فمن هنا لابدّ أن يكون الإنسان يعرف قدر الوطن وينظر إليه بعين التعظيم والاحترام.

ولعلّ خير دليلٍ على أهميّة هذا الموضوع، ما صحّ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنّه خاطب مكّة المكرّمة مودّعاً لها "ما أطيبكِ من بلد، وأحبَّكِ إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيركِ" (الترمذي، مكتبة الشاملة، ۳/ ۲۵۰) ولو أدرك كلُّ إنسانٍ معنى هذا القول، لأصبح الوطن لفظاً تحبّه القلوب جميعا، ومظاهر حبّ الوطن والدفاع عنه متنوّعة، إمّا بالسيف يتحقّق وإما بالقلم؛ وهذا الثاني مربط الفرس وبادر إليه الشعراء ومارسوه، ما أمكنهم أن يتوسّلوا إليه وأن يقوموا بواجبهم تجاه الوطن.

سابقة البحث:

لم أطّلع بعد البحث والاستقراء على أيّة دراسة تناولت الوطنيّة عند هذين الشاعرين الكبيرين، وكلُّ ما اهتديت إليها هي عبارة عن بعض رسالات وبحيثات تتحدّث عن الموضوع بصورة ضمنيّة، وهي:

1- مقالة جامعية منشورة في مجلة اللغة العربية وآدابها (الوطنيات في أشعار ملك الشعراء بهار ومحمود الرصافي) للسيد محمد رضى مصطفوي نيا، في جامعة قم، السنة الخامسة، العدد الثامن، ۲۰۰۹م.

2- رسالة الماجستير كتبها الطالب ضياؤ الحق فقيرزاده بعنوان (خليل الله الخليلي وتأثره بالأدب العربي) تحت إشراف الدكتورعبد الصبور فخري في جامعة كابول عام ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٩ م .

3- مقالة منشورة في (مجله علمي پژوهشى، ادبيات معاصر فارسي) تحت عنوان (خليل الله خليلي شاعر بيداري وپايدارى) العدد العاشر، عام ١٣٩٣ هـ ش. كتبها رضا چهرقانى، وإسماعيل شفق.

4- رسالة جامعية كتبتها الطالبة حوا رحيمي تحت عنوان (بررسي أبعاد اجتماعي وادبي وطن دوستي در شعر معاصر افغانستان مطالعه موردي ديوان خليل الله خليلي) تحت إشراف دكتر مسلم ناد علي زادة ، عام ١٣٩٨ هـ ش.

ولكن جميع هذه الدراسات التي كتبت معظمها بصورة المقالات لم تتناول موضوع الوطنية في شعر الشاعرين بل التفتت كل منها إلى هذا الجانب ضمن الحديث عن أعمال الشاعرالأدبية وحياته العامة التفاتا خفيفا غير مقصود، والذي أنا بصدده هو تحديد جميع ماتناوله الشاعرين عند الحديث عن الوطن محللا و مقارنا بين الشاعرين والوقوف أمام قضايا الاجتماعية التي توحدا كل واحد فيها.

إشكالية البحث:

تتبين خلال هذه الدراسة الجواب عن الأسئلة التالية:

1- ماهي القيم الوطنيّة التي يركّز عليها الشعراء الوطنيّون في أشعارهم؟

2- هل استطاع الشعر أن يُشَكِّل رصيدا في الدفاع عن الوطن؟

3- ما مدى تأثّر الشاعرين بالنصوص الدينية والثقافة الإسلامية في وطنيّاتهما؟

حدود البحث:

البحث عبارة عن التحليل والمقارنة للشعر الوطني لدى شاعرين؛ أحدهما عربي والآخر فارسي، حيث يتمّ إيراد القصيدتين أوّلا حول موضوع توافقت فيه رؤية الشاعرين، ثمّ ينظر إلى صور التشابه والافتراق بينهما.

وفيما يلي نلقي نظرة موجزة على حياة الشاعرين، وأغراضهما الشعرية.

نُبذة عن حياة الشاعر معروف الرصافي:

معروف بن عبد الغني البغدادي الرصافيّ، (١٨٧٧ – ١٩٤٥م) شاعر العراق في عصره من أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق، يعد أحد شعراء العراق المجيدين في العصر الحديث، ولد الرصافي ببغداد حفظ القرآن الكريم وتعلّم الخطّ والكتابة في صِباه لدى الشيوخ في المساجد والكتيبات، وقد وجّهه شيخه الآلوسي وجهة أدبيّة، (**الزركلي، د–ت ۷/ ۲٦۸**). عاش الرصافي عيش الفقراء، واشتغل بالتعليم وعمل في الصحافة وكان يعمل في بعض المناصب الحكومية، كما أنّه عمل فترة مفتشا في وزارة المعارف، كان ذا طبع جيّد ينشد الشعر دون أيّ تكلّف وله ديوان شعريّ ضخم، يصل إلى تسع مائة صفحات، وقد أكثر في شعره عن مفاهيم الإنسانية والإسلاميّة الرفيعة، وخلّف آثارا كبيرة شعريّة ونثريّة، يعتبر الرصافي شاعر الاجتماع والسياسة، حيث تشكل أغراض شعره موضوعات الحرّية ونشر التعليم والاهتمام إلى البؤساء والأرامل والدفاع عن المرأة وإخراجها من الظلمة. وقد اتّهم الرصافي في دينه ولكنّه كان افتراء عظيما وكان رحمه الله مؤمنا مخلصا في دينه إلاّ لاينظر إلى قشور الدين ويعتقد بأنّه جوهر يتعلق بكيان الأشياء، ويتمثل في الأخلاق والخضوع والإخلاص والإشفاق وغيرها من القيم الإنسانية "وكان هَجّاء لاذعا تهاجي والزهاوي زمنا وتباريا، لكن لكل ميدانا؛ فالزهاوي كان فيلسوفا ورصافي وصافا فلزم كل ميدانه، توفي في بيته في الأعظمية في بغداد" (إميل يعقوب، ۳/ ۱۲۷۲).

نُبذة عن السيرة الذاتية للأستاذ خليل الله الخليلي:

خليل الله خليلي (١٩٠٦– ١٩٨٧م.) ابن مستوفي الممالك محمد حسين خان، شاعر الوطني الأفغاني الكبير، كاتب وباحث سياسي، ولد الخليلي في كابول في أسرة علمية ومثقفة، وهو يُعدّ من أبرز الشعراء المعاصرين الأفغان، لاسِيَّما في مجال الصحوة الإسلاميّة والوطنية والمقاومة، ولا يقتصر أشعار الخليلي على الشعب والإقليم الأفغانيّ فحسب، بل هو عاش صوتا مرتفعا للشعوب الإسلاميّة كلّها في أقطار العالم؛ ومن هنا نجد أنّ الخليلي تحدّث في أشعاره عن الجهاد والدفاع عن الوطن، ووحدة الأمّة، ورعاية الأرامل واليتامى، وعن التعليم والتعلم وغيرها من القيم الإنسانيّة والإسلاميّة الرفعية أينما حلّ وارتحل. (فقيري، ١٣٦٧ ش: ٣)

إن الخليلي من ناحية الأسلوب شاعر كلاسيكي، يخضع القوالب الشعر القديمة ولكنّه من ناحية المعنى والمفهوم يبتكر معاني حديثة تنطبق روح العصر لا عهد لها لدى أي شاعر فارسي آخر، وبما أنّ أفغانستان تُعدّ من البلاد الإسلاميّة التي متصدّرة في مجال الدفاع عن الوطن ومقاومة الاستبداد والصحوة الإسلامية، ابتكر خليلي معاني تحث الشباب على الكفاح والوقوف أمام العدوان، الذي تورّطت أفغانستان عدّة مرات فيها، وذلك؛ لأنّ الخليلي كان من تلاميذ الموقظ الشرق العلاّمة السيّد جمال الدين الأفغاني، يعرفه جيّدا ويقتدي به، وهو يعتقد أنّ طريق النجاة من هذه الأزمة المزمنة التي تعاني منها الأمّة الإسلاميّة عامة والشعب الأفغانيّ خاصة، هي أن تستيقظ الأمّة من هذا السبات العميق، و حسبما نجد لدى بعض المفكرين الإسلاميين أنّ أفغانستان كانت حاضرة هذه النهضة الجديدة ومصدر انطلاقتها، كما أشار العلاّمة محمد إقبال اللاّهوري إلى هذا المفهوم قائلا:

آسيا يک پيکر آب وگل است ملت افغان در آن پيکر دل است

از فساد او فساد آسيا در گشاد او گشاد آسيا

(إقبال، ١٣٨٢: ٢٣٩).

ويمكن أن نقسّم حياة الخليلي الأدبيّ إلى فترتين، فترة ترجع إلى ماقبل انقلاب ٨ ثور ١٣٥٨ش. وتحتوي أشعار الخليلي في تلك الفترة موضوعات عامّة مثل: وصف الطبيعة والمدح والفخر والأمثال والحكم و... وفترة مابعد الانقلاب وهذه الفترة هي ما تميّز الخليلي عن أقرانه من الشعراء، وتدفعه يركّز على الموضوعات الحيّة، مثل: الوطنيّة والجهاد والمقاومة. ويتّسم شعره بكونه حاملا للقيم الدعوية والحثّ على مقاومة الاستبداد والإصلاح وحبّ الوطن والحنين والاشتياق إليه. (مجددي، د–ت، ٢).

وفي هذه المقارنة نريد أن نتعرف على كيفيّة إبراز مشاعر الحبّ والحنين الكامن لدى الشاعرين في قصائدهما تجاه الوطن، حيث نرى أنّ الشاعرين تماشيا في الموضوعات الوطنيّة، واتّفقا إلى حدّ كبير في قصائدهما، وقد تمّ تصنيف المقارنة الموضوعية في أوجه التشابه بين الشاعرين حسب الآتي:

- حُبّ الوطن
- الحنين إلى الوطن والأهل والأصدقاء
- مقاومة الاستبداد
- الدعوة إلى التضامن الإسلامي ونبذ الخلافات
- نشر العلم وصحوة أبناء الوطن
- نقد الأمراء والسياسيون
- العيد والحزن
- من ويلات الحرب

1- حبّ الوطن

إنّ من الموضوعات التي شكّل شطراكبيرا من الديوان العربي المعاصر هو أدب الوطنيّة، وذلك إثر التمزّق والخراب الذي خلفته الهجمات الغربيّة وسيطرة الاستعمار الخارجيّ في العالم الإسلاميّ، فأصبح الوطن من المضامين التي يتناوله الشعراء في أشعارهم، من زوايا مختلفة وصور متنوّعة، تدور كلّها حول الدفاع عن الوطن، والغرام والحنين إليه (مصطفوي نيا، ١٤٣٠ق: ١٠٤).

ومن أهمّ مظاهر العشق بالوطن هو إبراز الحبّ الذي ينسجه الشعراء بطريقتهم في الشعر، وقد استطاع هذا الموضوع أن يجذب انتباه كثير من الأدباء والشعراء؛ فأصبح من الأمور المهمة والمضامين الحساسة التي يتناوله الشعراء الوطنيون حبّا لأوطانهم. فشكل الشعر الوطني عندهم ركنا من أركان الشعر الدعوي، وهو من أسمى أنواع الحبّ حيث يستدعي التضحية وبذل الروح في هذا الطريق، ومن هؤلاء المولعين بحبّ الوطن الشاعر العربي الكبير معروف الرصافي، الذي غمره حبّ العراق الحبيبة، وشاعر الوطني الأفغاني الفحل، خليل الله الخليلي الذي غشيه غمّ الفراق من أفغانستان العزيزة.

يقول الشاعر معروف الرصافي، في قصيدة ألقاها في حفلة منتدى التهذيب في بغداد، إنّ حبّ الوطن قد اعتراه منذ طفولته وكان حبّه للوطن كحبّ قيس لليلى، ويزداد يوما بعد يوم، كما أنشد:

ولي وطنٌ أفنيتُ عُمري بحبّه ... وشتتُّ شَملي في هَواه مبدِّدا
ولم أَرَ لي شيئا عليه وإنّما ... عليّ له في الحبّ أن أتشددا
تعلّقته منذ الصِّبا مُغرما كما ... تعلّق ليلي العامريّ مُعمّدا
وسيّرتُ فيه الشعر فخْرا فطالما ... شدَوْتُ به في محفل القوم مُنشِدا

(الديوان، ١٩٥٣م: ١٢٢).

ويتعالى الحبّ والغرام إلى الوطن عنده حتى أنّ الرصافي يعتبر الموت في سبيل الوطن سببا للعِزّة والفخر وهو يصارح بهذا الأمر في قصيدته المعروفة (النشيد الوطنيّ) أنّ بذل الروح في سبيل الوطن واجب ويعلن للغافلين والمهملين لهذه القضية أن يضحّوا بأرواحهم ليكونوا خالدين.

نحن خَوّاضوا غِمار الموت كشّافوا المحنْ ... ما لنا غير اكتساء العزّ أو لُبس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لإحياء الوطن ... هل سوى الأرواح للأوطان في الدّنيا ثَمن؟
يا ضلالا للأُلى لم يكونوا له الفدى ... إن نَمُتْ نحن فلْتَعِشْ ولْتَحيا أوطاننا

(الديوان،٢٠١٢/ ٩٣١).

وعلى هذه الشاكلة نجد أنّ شاعرنا الأفغانيّ، الذي لايكون أقلّ حبّا عن الرصافي تجاه وطنه، وله أشعار تضاهي شعر الرصافي في نوعية إظهار هذا الحبّ المحرق، وحبّ الوطن أعزّ ما نعرفه لدى الخليلي في أشعاره؛ وهو ذو أهمية بالغة في حياته. إنّ عشق الوطن والحنين إليه، له أبعاد عديدة في أشعار الخليلي ويتعدّد صوره وأشكاله ولايقتصر في منطقة أو إقليم خاص؛ إنّما هو يحتوي آفاقا واسعة تجد لها أيّ صلة دينية كانت أو ثقافيّة (مولايي، د-ت ٧٤). يقول في قصيدته الرائعة (به پيشگاه وطن) حبّ الوطن عنده يكبر ويعظم حتى إنّه يصل إلى مرحلة القدسيّة كأنّه يقول مخاطبا إلى الوطن أنّه يعبده بعد عبادة الله ويسجد إليه حيث يقول:

داند خـــدا که بـــعد خـــدا می پرســـتمت
هان ای وطـــن مپـرس چـرا می پرسـتمت
ذرات هستـــی ام ازتوبگـــرفته است جان
چو برتری زجـــان همـــه جا می پرستمت
در نیمه شب که باز کنـــد آســـمان درش
باده هـــزار دســـت دعـــا مـــی پرستـمت
چون پر شکسته مرغ که از آشـیان جداست
اینـک ز آشـــیانه جـــدا مـــی پرستـــمت

(الديوان، ۱۳۸۵ش: ۲۵۶).

وليس الوطن لدى الخليلي هو البيئة أوالبلدة التي يعيش فيها فحسب؛ بل الوطن الذي يتحدث عنه، هو كلّ قوم أو طائفة أوملّة تمت له بصلة مذهبيا ثقافيّا تاريخيّا أو اجتماعيّا، وحدود الوطن عنده تنطلق بداية من نهر جيحون وآسيا الصغرى، مرورا إلى خوارزم وإلى أنحاء دجلة وفرات وصولا إلى بحر العمان والهند، ومن هنا نجده يدعو العالم الإسلامي إلى الوحدة والتعاضد والدفاع عن الحريم و كيانهم.

وبما أنّه مولَع بعشق الوطن فلايساوي أيّ بلاد من البلدان العالم مع موطنه العزيز، ويضيف مع أنّ البلدان الأجنبيّة وإن كانت لها طراوة، ومناضرها خلابة، بسبب العمران والأمان؛ إلاّ أنّه يعتبرها مجمرا من النيران، لأنّه ليس مسقط رأسه، كما يعبّر عن إحساسه في هذه القصيدة.

ای گرامـــی خاک پاکـــم ای وطـــن — ای فـــــدای خـــار خارت جـــان مـــن
گرچی خاک دیگران بس دل کش است — دور ازتـــو در نگـاهـــم آتـــش است
جـــان ما گررفت گـــور را باک نیـــست — تو بـمان ای آنکه چـــون تو پاک نیـست
تو بـــمان ای سنـــگر آزادگـــان — زاد گـــاه راد مـــــردان جـــــهان

(المصدر نفسه، ۲۵۶).

2- الحنين إلى الوطن والأقارب

عندما يغادر المرء وطنه ويضطرّ أن يأوي إلى بلد آخر، فهو يبتعد عن أهله وأحبّته وأصدقاءه فيشتاق وتتوق نفسه إليهم، وقد عاش شاعرنا هذه التجربة وتعرّض لهذا الموقف المحرج، فحنّ إلى أمّه فيناجيها، ومهما يتذكّرها تنهمر الدّموع على وجناته، ولكن كلّ هذه الدموع لا تُجدي ولا تطفيء حرارة الشوق والحنين، كان والد الرصافي كثير التغيب عن البيت ولذلك قضى الشاعر عنفوان شبابه مع أمّه ونجده حينما غادر العراق ويتذكرها نرى أنّه يتلهّب لرؤية أمّه ولاتسكن روحه إلاّ بذكرها، فيقول:

إذا ما تَذَكَّرت العَجُوزَ بَكِيتها بِدَمع — بِهِ الأهدَابُ تَطفُو وَتَغرقُ
وما شَرَقِي بالدمعِ يا أُمُّ وحدَهُ — ولكن بِرُوحي عِندَ ذكراك أشرَقُ

(الأعمال الشعرية الكاملة،۲۰۰۰م: ٤٨٢).

ويقول في قصيدة أخرى:

تَذَكَّرتُ في أوطَاني الأهلَ والصّحبَا — فأرسَلتُ دَمعَاً فَاضَ وَابلهُ سَكبَا
وبتّ طريد النَّومِ أختَلِسُ الكرَى — بشاخِصِ طرف في الدُّجَى يَرقُبُ الشُّهبا

(الديوان، ۱۹۵۳م: ۳۹۷).

ويقول الخليلي في نفس المضمون عند ما يتضايق به العيش بعيدا عن الوطن، وهو يتمني بأنّه ليت الموت أدركني وأنا في بلدي، ويتأسف ببالغ اليأس والخيبة أنّ بلدي وإن حرمتُ من رؤيته في الحياة، ولكن أمنيتي الوحيدة هي أنّني لما أفارق الحياة وأنا فيه وهو أعلى مراحل العشق:

مهیـن ایزد از من اگـر جان ستـاند — در آن کشـور راد مـــردان ستـاند
در آن جـا ستـاند کـه زادم ز مـادر — در آن زادگـاه بـــزرگان ستـــاند
در آن جا ستاند که یک تا پرستان — سر از پیـکر بی خـدایان ستـــاند

در آن جا که نای شـــبانش شبـانه گهی جان فزاید گهی جان ستاند

(الديوان، ۱۳۸۵ش: ۱۲۱).

والحقيقة أن مفهوم الغربة تسرّب إلى الأدب الأفغاني بعد الاحتلال الروسي لأفغانستان، وإثر لجوء الناس إلى البلدان الأخرى، فخليلي هو من عاش نفس التجربة وهو من الأوائل الذين تحمّلوا أنواع المشاق والمصاعب في عالم الاغتراب والهجرة، وبعد أن أرغمت الحروب القبائل الأفغانيّة إلى مغادرة البلاد واللُّجوء إلى البلدان المجاورة، ولم تَعُد أفغانستان صالحة للعيش وتحوّلت كابول إلى مجمر تحرق فيها كلّ صغيرة وكبيرة، وأصبح الخليلي الذي كان يتمنّى أن لقي مصرعه وهو في مسقط رأسه، في موقف يشجّع مواطنيه إلى الدفاع عن الوطن، ليمهّدوا سبيل العودة إليه، حيث يقول بأنّ الموت له حلاوة إذاكان برفقة الأهل والأحباب، ويعتبر ذلك من دواعي الفخر مادامت رحلة الموت مصحوبة مع جيل الوطن، وينشد مبينا لهذا الغرض في قصيدة له:

چون به غربت خواهد از من پیک جانان نقد جان
جـــا دهیـــدم در کنـــار تـــربت آوارگان
گـور مـــن در پهـــلوی آوارگان بهـــتر، که من
بی‌کســـــم، آواره ام، بی میـهنم، بی خان و مان
همچو من این جا بگورســـتان غربت خفته است
بـــس جـوان بی وطـن، بـس پیـــرمرد ناتـــوان
کشـــور من ســـخت بیمار است، آزارش مـــده
زخـــم‌ها دارد، نمـــک بر زخـــم آن کـمتر فشان
رقـص رقصـــان از لـــحد خیـــزم اگـر آرد کـسی
مشـــت خاکـی از دیار مـــن به رســـم ارمـــغان

(خراسانی، ۱۳۶۸: ۳۷).

3- المقاومة ضد الاستعمار

من المضامين المهمّة التي خاض في غمراتها الشعراء الوطنيّون على شاكلتهم، هو الحثّ للدّفاع عن الوطن وذمّ الاستعمار، لأنّهم على حقّ حينما يعتقدون أنّ الوقوف أمام الاستعمار له حلّ وحيد وهو التخلّص عن نير الاستعمار ونيل الاستقلال، ومن هذا المنطلق نجد أنّ الشاعرين الرصافي والخليلي نظموا قصائد يخاطبان فيها شعوبهما الذين تحطّموا تحت وطأة الاستعمار. يقول الشاعر معروف الرصافي في قضيّة الدّفاع عن الوطن ومقاومة الاستبداد:

ياقومُ إنّ العِدا قد هاجموا الوطَنا فانضوا الصوارمَ واحموا الأهل والسّكنا
واستنفروا لعدوّ الله كلّ فتىً ممّن نأى من في أقاصي أرضكم ودنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن به تقيمون دين اللّه والسننا

(الديوان، ۱۹۵۳م:٤٩١).

وفي قصيدة أخرى له يحثّ شباب المسلمين قائلا الموت قضيّة حتميّة لا مفرّ منه ولكنّ الموت في سبيل الدفاع عن الوطن هو شرف أعلى، وإن متّم في هذا الصدد، ستموتون ميتة الشرفاء وهو موت الشهداء:

إنْ لم تموتوا كِراما في مواطنكم مِتّم أَذِلّاء فيها مِيتَةَ الجبنا
ولا حياة لهم من بعد ما جبُنُوا كلّا وأيّ حياة للذي جَبُنا
عارٌ على المسلمين اليوم أنهم لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عدنا

(المصدر نفسه، ٤٩٢).

وعلى هذه الشاكلة نجد أنّ الخليلي يسرد قصائد طويلة في نفس المضمون الذي أنشأه الرصافي للحثّ على مقاومة الاستعمار، وهو يحرّض الشّباب على عدم الاكتراث بمتلكات العدوّ من الأسلحة الفتاكة ومقاتلاته القذّافة ودَبّاباته المُحطِّمة، ويُلقِيهِمْ رسائلَ مُشْبَعة بجوهر الإيمان والإخلاص والتوكل على الله:

مترس از دشمن خون خوار واز تیغ جـــگر دوزش

مترس از بمب آتش بار زهر آلود جان سوزش
مترس از گربه گان لقمه خوار دست آموزش
به یک فریاد مستانه به خون تر کن تن وپوزش

(الديوان، ۱۳۸۵ ش: ٤٦٠).

وفی قصیدة له التي تحمل عنوان (نشید المجاهد) یحثّهم علی الجهاد مبشّرا إیاهم بأنّ جماعة المجاهدین متمتّعون بحمایة الله، وطاقاتهم تتجدّد کلّ صباح وکلّ مساء بدعم من الله:

ما مجاهد حقیم قدرت خدا باماست
هرکجا که رو آریم دست کبریا باماست
از فراز سنگرها چشم مصطفی با ماست
در طلوع هر صبحی طرفه مژده ها باماست

(الديوان، ۱۳۸۵ش: ۲۹۳).

ویصارح الخلیلي فی فضل الحرّیة والاستقلال وفي تشجیع المقاومین، قائلا بأنّ الحیاة لها معنی آخر أیضا وهو الحرّیة، حیث لا حیاة بدون الحرّیة وأنّ الحیاة في الإسارة هي عبودیّة ویقوم بذمّ الاستبداد بسوط الشعر مفتخرا بأنّ التاریخ خیر شاهد علی أنّ الشعب الأفغانيّ لم یعش هذه الذّلة قطّ ولن یعش أبدا ولتصویر هذا المعنی یسرد:

زندگی در بردگی شرمندگی ست معنیِ آزاد بودن زندگیست
سر که خم گردد به پای دیگران بر تنِ مردان بود بار گران
بندهٔ حق در جهان آزاده است مست وی فارغ زجام وباده است

(المصدر نفسه، ۱۹۰).

وهکذا یعتقد الخلیلي بأنّ الدین والحرّیة هما یجریان في دم الأفغان ولن یفصلا عنه ماداموا هم أحیاء ولن یقفوا خاضعین أمام أي عدوان متغطرس.

3- الدعوة إلى التضامن ونبذ الاختلاف:

ومن العناصر التي تدعم الشعوب في سبیل تکوین المقاومة والقیام ضدّ الاستبداد، هي الوحدة الوطنیّة وعهد المؤاخاة بین الأقوام والمذاهب السائدة المتواجدة في البلاد وهذه من أهمّ مظاهر الوطنیّة؛ لأنّ التفرقة هي أساس تفکّك المجتمع، وهي نافذة یجري الاستعمار من مجراها ویتلاعب بها علی حیاة الأمم کیف ما شاء، ومن الأمور التي رکّز علیها الشعراء الوطنیّون في سبیل تحقّق هذا العنصر هو حثّ الشعوب علی الاعتصام والتماسك بالوحدة، فالشاعران الرصافي والخلیلي یصرّحان بأنّ الوحدة الوطنیّة والتعایش السلمي لایتحقّق إلاّ بنبذ الاختلافات وترك الافتراقات.

یقول الرصافي في قصیدته (في سبیل الوطن) التي أنشدها في القدس عام (۱۹۲۰م) بمؤتمر الوحدة بین المسلمین والمسیحیین.

أمَا آنَ أن تُنسی من القوم أضغان فیُبنی علی أُسّ المؤاخاة بنیان
أمَا آنَ أن یُرمی التخاذُل جانبا فیکسب عزا بالتناصر أوطان
علامَ التعادي لاختلاف دیانة وإنّ التعادي في الدیانة عُدوان

(الديوان، ۲۰۱۲م: ۱۹۱)

ویستمرّ قائلا في نفس القصیدة بأنّ کثرة الأدیان بین أبناء الشعب الواحد، لاینبغي أن تکون سببا للتفرقة والاختلاف، وإنّما الاختلاف بیننا هي مزرعة یحصد ثمارها الاستعمار، فیقول في قصیدة (الحیاة الاجتماعیة والتعاون) مؤکّدا لأمر التعاضد والتکافل بین الناس.

إذا جمعتْنا وَحدةٌ وطنیّةٌ فماذا علینا أنْ تعدَّدَ أدْیانُ
إذا القوم عَمتهم أمورٌ ثلاثةٌ لِسانٌ وأوطانٌ وباللهِ إیمانُ
فأيّ اعتقاد مانع من أُخُوّةٍ بها قال إنجیلُ کما قال قرآنُ
کتابان لم ینزل هما الله ربُّنا علی رسله إلاّ لیسْعَدَ إنسانُ

(المصدر نفسه، ۱۹۲)

ويعالج الخليلي ألم المجتمع مستخدما نفس المنظار الذي وضعه الرصافي ويكتب نفس الوصفيّة ويجوّزها للمعالجة والمداواة، وهي رسالة جاء فيها بأقراص تحميهم عن الشتّت، وتحمّسهم على التعاضد، فأنشد في قصيدة له بعنوان (وطن دار دلير من) يدعوا الناس بنبذ الاختلافات المذهبيّة والعصبة القبليّة، وأنّ أفغانستان بلد كثير العرقيات، فيها سنّة وفيها شيعة، وفيها أكثر من لغة وعادات، وكلّنا أبناء وطن واحد راكبون في سفينة غايتها تهمّنا جميعا، فيتساءلهم من هو الشيعيّ ومن هوالسني؟ ويوبّخ الذين يهتفون بالشعارات الطائفيّة قائلا بأنّ التلوّن بأسره سواء أكان مذهبيّا أو طائفيّا مرفوض عندنا، ولنا أن نصطفّ بصفّ واحد ونعمل جاهدين لإقامة الوحدة الوطنيّة، فيقول:

تو چـون یک مشـت آهن شو سپـــس باقـوت بازو
دمـــاغ دشـمن مـغررو مـــرد مخـوار را بشـکن
هزاره کیست پشتون کیست تاجک چیست ازبک چیست؟
اساس فـــرقـه سـازی های استـعمار را بشـــکن
تو چـون فـرزند اسلامی شعارت نیست جـز تـوحید
زمحـراب محـمد پرچـم کـــــفار را بشـــکن

(الديوان، ۱۳۸۵ ش: ٤٥٩).

وفي سبيل يقظة المسلمين يمتاز الخليلي برؤية إسلامية أوسع من الرصافي، كأنّه يقوم في منبر مرتفع يتحدّث من موقف مصلح مفكّر، لم يقصّر خطابه للشعب الأفغاني وحدها؛ إنّما يخاطب الأمّة الإسلاميّة جمعاء، ويحثّهم على الوحدة والانسجام، والتكافل الاجتماعي الإسلاميّ مع بعض، ولذا نجد في ديوانه أشعارا كثيرة أهداها على البلدان الإسلامية، مثل الجزائر، وفلسطين و العراق واليمن و مصر وغيرها من البلدان الإسلامية التي تعاني من الحروب (چهرقانی، ۱۳۹۳ش: ۳۱).

وفي أيّام الاحتلال الروسي لأفغانستان يَهيج الخليلي ويتعرّض إلى جامعة الأزهر مخاطِبا إيّاها في قصيدة عنوانها (أيّها الأزهر) التي يوجّه فيها نقدا لاذعا للموقف الأزهر من سُباته العميق تجاه قضيّة أفغانستان واشتباك العدوان الروسي مع البلدان الإسلامية واحدا تلو الآخر، ويستفسر عن شيوخ الأزهر رأيهم، ما بال الأزهر ألم يعد هو قبلة المسلمين في العلم والفتوى؟ أ لست ترى ما الذي حلّ بنا؟ أ لستَ تُعَلِّمُ الناسَ بأنّ الدفاع عن دين الله هو فريضة على المسلمين أجمعين، ولكن ماذا يعني هذا الصمت العميق، وإلى متى؟ كمال نظم:

أيّها الأزهر چنین آرام و خاموشی چرا؟
آفتاب خویش را در پرده می پوشی چرا؟
برمسلمانان مگر ازدین حمایت فرض نیست؟
پیرو توحید را باهم صداقت فرض نیست؟
بهر این ناموس عظمی درس غیرت فرض نیست؟
در جهاد حق مگر باما اخوت فرض نیست؟
أیها الأزهر در این هنگامه لب بستی چرا؟
در جـهاد حق باما نپیوستی چرا؟

(الديوان، ۱۳۸۵: ۴۹۶).

ويتصدّر الخليلي بهذه المغامرات على صدر قائمة الشعراء المقاومين الأفغان الذين لايقلّ عددهم، والذي يعرف برائد الأدب الإسلامي المقاوم في أفغانستان، حيث صمد بشعره وقلمه أمام العُدوان المحتلّ، ودعى الناس بالوحدة والكفاح ضدّ أيّ عُنصر أجنبي، مستعينا بالله ومتمسكا بالعقيدة السليمة الصافية.

4- نشر العلم وصحوة أبناء الشرق

الاهتمام بالعلم والصحوة يشكّل غرضا آخر من الأغراض التي لم يغفل عنه الشعراء الوطنيّون، بل ويولّونه أهميّة بالغة، لا يقلّ شأنا عن أيّ ركيزة أخرى، ويعتبرون أيّ تطوّر يشهده البلاد رهينا بالتطوّرات العلمية والإسهامات الإنسانيّة، ولذلك نجدهم يشجّعون شعوبهم لطلب العلم ويقارنون بين بلدانهم وبلدان المتحضّرة على أساس العلم، فالشاعر معروف الرصافي تناول هذا الموضوع في معظم قصائده؛ وهذا لأنّ عصر الشاعر كان يصادف عصر نهضة التكنولوجيّة الأوروبيّة، ومن هنا يتوق نفسه ليرى بلده بذلك المستوى، ويشجّع أبناء بلده للوصول على تلك المدارج العلميّة العالميّة:

كفَى بالعلم في الظّلماتِ نورا يبَيّنُ لنا في الحياةِ أُمورا
أ أبْناءُ المدارسِ إنّ نفسي تُؤمّل فيكم الأَمَل الكبيرا
فسَقيا للمدارسِ من رياض لنا قد أنبتَتْ منكم زُهورا
ستَكتسِبُ البلادُ بكم عُلَوّا إذا وُجِدَتْ لها منكم نصيرا
وأصبَحْتُم بها للعزّ حِصْنًا وكُنْتُم حولها للمجدِ سُوْرا

(الديوان، ۱۹۵۳م: ۵۲).

ويرى الرصافيّ أنّ السبب الرئيسي لعمران البلاد ورُقِيّها يتحَقّق بجناحي العلم والثقافة، وحلم كلّ شعب منوط بإرادة شُبّانهم، ولأجل ذلك يوجّه خِطابا إلى أبناء بلده:

هِمَم الرّجال مقيْسَة بزمانها وسَعادة الأوطان في عِمرانها
وتعاونُ الأقوامِ ليس بحاصل إلاّ بنشر العلم في أوطانها
إنّ التجارب للشيوخ وإنّما أمَلُ البلادِ يكونُ في شبّانها
هذى لدى العرب الكرام المبادئ نُزلت بها الآياتُ في قرآنها

ويقول مفتخرا بقوميته العربية:

والعرب أكبر أمة مشهورة بفتوحها وعلومها وبيانها
كم أقامت للعلوم مدارسا يعيا ذووا الإحصاء عن حسبانها

(المصدر نفسه، ۱۳۹).

ويوصي الر صافي في قصيدة ألقاها على أبناء بلده في المعهد العلمي محذّرا عن توغّلهم في الشعر وتغافلهم عن العلوم العصرية، إن العلوم اتسعت دوائرها وانتشر ذيل العلم مما يُعرف في الأزمنة الماضية، فلا بدّ لأبناء الشرق من التزوّد بهذه العلوم المتداولة التي راجت مؤخّرا وأسهمت إسهاما بارزا وأعرضت صفحا في ترقية العالم وتغيره:

أَمَا علموا أنّ الحياةَ بعصرنا مدارس في كلّ البلاد تشيد
فيا قومنا إنّ العلوم تجدَّدَت فإن كنتم تهوونها فتجدَّدُوا

(المصدر نفسه، ۷۴).

ولما نبحث الأمر عند الشاعر خليلي فنجد أنّه أيضا ولّى القضية اهتماما بالغا ويعتبر الجهل والأمّيّة من المشاكل الاجتماعية التي عانى منها الشعب الأفغاني، ولأجل هذا السبب تعرّض الأفغان لمشاكل عديدة والأمل الوحيد الذي يحقّق الآمال هو تسليح الشباب بأسلحة العلم:

نـــور امـيدی نبينم در سراپای جهان
گر بود آن هم فروغ خاطر دانشور است
هيچ قـوت را نباشـد پايۀ تاثيـر علـم
كادمی را در امـور زندگانی رهبر است

(الديوان، ۱۳۸۵ش: ۳۹۸).

يقول الخليلي في قصيدة له التي تحمل عنوان (خطاب به متعلمين هرات) أنّ الجهد والمثابرة في سبيل حصول العلم هو سبب وحيد يرفع من شأن الأمم ومستوى المجتمعات، وأنّ الجيل الناشئ هم حبال العِزّ والشرف الذي يناله أيّ مجتمع في مستقبل أيّامه:

ای گـــل نـورسـتۀ آمـــال ما مـــهر درخشـــندۀ اقبـال مـا
زنـده زتـــو آتيـــه وحـال ما بستـــه بتو عظمت واجلال ما
ما به اميدی كه تو دانا شوی مـرد هنـر پيـشۀ فـردا شوی
بهـر وطن دسـت توانا شوی صـف شكن فرقـۀ اعدا شـوی

(الديوان، ۱۳۸۵ش: ۴۷۲).

وحينما يرى الخليلي أنّ بني جلدته منغمسون في البلهنيّة والملذّات يملّ وينزعج ويقول متحرّجا في هذا المشهد المحزن، أنّ موكب حضارة العالم يتمشى بسرعة فائقة والاطلاع عن أسرار هذا التقدم يقتضي الوعي واليقظة وهو بحاجة إلى جهدك وسهرك ولكنّك منهمك في ضلالك، وأنت بغافل عما يجري في ثنايا الكون:

همه بيدار وتو در خواب گرانی تاکی　　غافل از سر ترقی جهانی تاکی
چشم براه کمال دگرانی تاکی　　تو به این پردهٔ تاریک نهانی تاکی

(الديوان، ۱۳۸۵ش: ۴۸۰).

5- انتقاد السياسيين والأحزاب

من المظاهر المؤثّرة والفعالة للنشاطات الأدبيّة هو استخدام الأدب لإصلاح المجتمع، وذلك عن طريق النقد وتقييم الأعمال والمشاريع التي ينفّذها الأمراء والسياسيون، فأدرك الشاعران أهميّة النقد ودوره الفعال، في تأنيب رجال السياسة وتوجيههم نحو الصواب، وقاما بنقد الحكومات والأمراء في أشعارهما وأبرزوا عدم كفاءتهم لأمر البلد وإرضاء الشعب، ويقول الشاعر الرصافي في قصيدة تحمل عنوان (الوزراء عندنا) ناقدا عن ظلم الوزراء وتحكّمهم:

بالله يا وزرائنا ما بالكم　　إن نحن جادلناكم لم تُنصفوا
أفتُقنعون من الحكومةِ باسمها　　ويفوتُكم في الأمرِ أن تَتصرّفوا
هذي كراسي الوزارة تحتكم　　كادت لفرطِ حيائها تتقصّف
أنتم عليها والأجانب فوقها　　كلٌّ بسلطته عليكم مُشرِفُ

(الأعمال الشعرية الكاملة، ۲۰۰۶م: ۶۰۳).

ويقول في ذمّ التفكك والانشقاق الذي أحدثته الأحزاب والجماعات السياسية:

متى نرجو لغُمَّتِنا انكشافا　　وقد أمسى الشقاق لنا مَطافا
مَلأْنا الجوَّ بالجدل اصطِخَابا　　وكنُّا قبلُ نَملؤُه هِتافا
وما زلنا نهيمُ بِكُلّ وادٍ　　من الأقوال نُرسِلها جُزافا
ونُرجفُ في البلاد بكلّ رُعب　　يهُز فرائصَ الأمنِ ارتجافا

(الديوان، ۱۹۵۳م: ۴۱۱).

وهكذا نجد عند الخليلي قصائد وأشعارا في نفس المضمون، وبعبارات أقسى يذمُّ فيها قادة الحروب وزُعَماء الأحزاب الذين يُشعِلون نيرانَ القتال، ثمّ يُقِيمُونَ نَدَواتٍ يتظاهرون فيها بالنّصالح والتّعافي ولكنّك تجدهم بعد كلّ ندوةٍ يتآمرون على الصلح، لأنّه يعتقد أنّ هؤلاء الخونة والغدّار يصطادون السمك بعد كدر صفاء الشعوب والقبائل فيما بينهم، وقد اتّخذ الخليلي موقفا شديدا منهم، كما يقول :

آتشی از جنـگ افروزند هردم در جهان
این سیاست پیشه گان شوم با افکار خویش
پیـش ما از آشتی لافند اما در کمین
گرم تر سازند هردم عرصهٔ پیکار خویش
ظالمان را گنج گوهر کی کند قانع که خوك
گر به گلشن جا کند جوید همان مردار خویش

(الديوان، ۱۳۸۵: ۸۱).

وفي قصيدة أخرى يهاجم هجوما شرسا على حريم منظّمة الأمم المتّحدة، مصارحا بأنّ هذه المنظّمة شأنها بالنسبة للدّول الفقيرة شأن ناظر متفرّج، وأمّا مقولات مثل حقوق الإنسان والدفاع عن المظلوم وغيرها من الشعارات الجوفاء، أكاذيب لا عبرة بها، لأن هذه المنظّمة تمّت إنشاؤها لتحقّق مصالح الغرب السياسي، وإن حصل هذا إزاء دماء المسلمين ورؤوس المستضعفين، ويتبادر في قصيدة له بعنوان (إلى منظة الأمم المتحدة) إلى إذاعة هذه الحقائق:

اندرین کاخ مجلل همه نقش است به سنگ　　از مساوات وحقوق بشر وصلح امم

اگر از غرب تنی چند بیفتد در بند　　چی فغانها که ازین کاخ نخیزد پیهم
لیک یک کشور آزاد چو غلتید بخون　　کس ندیده است در ابروی کسی اینجاخم

(خراسانی، ۱۳٦۸ش: ۱٥٦).

6- العيد وتجديد الحزن

ومما يستصعب تحمّله على الشاعرين هو عودة العيد وإثارة مشاعر الفقراء في كلّ سنة وفي كل مرّة، كأنّه يعود حاملا لبشارة تخص الأثرياء، وتزدادهم بهجة ورأفة، وأما الفقراء فسهمهم من العيد هو البؤس والتعاسة، وكلّما عاد عيد عاد معه أحزان مجددة، فلا نصيب لهم من المأمن الآمن والملبس الواشي، وكأنّما العيد موسم ارتزاق يحتضن الغني بهجته ويستكمل الفقير خيبته، فالشاعر الرصافي يتمنّى أنّه ليت عيدا لم يحلّ حتى لايتجدّد الحزن بتجدده:

أطلّ صباحُ العيد في الشرق يُسمعُ　　ضَجِيجا به الأفراحُ تمضِي وتَرجِعُ
صباحا به يختالُ بالوشي ذو الغِنى　　ويُعوِز ذا الإعدام طِمر مُرقّعُ
صباحٌ به تغدو الحلائلُ بالحليّ　　وتَرفضُّ من عين الأرامِلِ أدمُعُ
ألا ليتَ يومَ العيدِ لا كانَ إنّه　　يُجدِّد للمحزون حُزنا فيَجزَعُ

(الديوان، ۱۹٥۳م: ٥۸).

وأمّا الخليلي كذلك عاش نفس التجربة المرّة التي مرّت على الرصافي في بلده، وأنّه تألّم أكثر مما تألّم منه الرصافي، وهو يخبرنا أوّلا بأنّ العيد الذي يتحدّث عنه الناس يختلف عمّا يتصرّف معه الأفغان وهو أصبح مقولة مَنْسِيّة لدى الشعب الأفغاني ويقول ويهنّئ العيد للأمّ التي انشغلها في يوم العيد نزيف ابنها الذي تلطّخ جثمانه بالدّماء:

شب عيد است وزان شهر تب آلود　　زشادي بر نمي آيد صدايي
در اين ماتم سرا دودي نبيني　　به جز آه يتيمي بي نوايي
مبارك باد عيد آن مادري را　　كه فرزندش بخون غلطيده امروز
به جاي روي گرم تابناكش　　به زارى مرقدش بوسيده امروز

(الديوان، ۱۳۸٥: ۲۲۱).

ويقول في قصيدة نظمها في مطلع الرّبيع، والنوروز الذي هو عيد الشباب وبداية السنة الجديدة و يحتفل به في البلاد الثلاثة، إيران، أفغانستان وطاجكستان، وكان هو داعيا للفرحة والسرور، يقول: بلّغوا النوروز عني كي لا يأتي هذه السنة لأنّ مجيئه لا يَطيبنا ونحن على حِداد:

گوييد به نوروز كه امسال نيايد　　در كشور خونين كفنان ره نگشايد
بلبل به چمن نغمه شادى نسرايد　　ماتم زدگان را لب پرخنده نشايد

(المصدر نفسه، ٥۳۱).

7- من ويلات الحرب

إنّ من التبعات والآثار السيّئة التي تتخلّف الحروب في البلاد هي فتنة الخراب والدّمار والتشريد لأهالي القرى والبلاد، ويعبّر الرصافي عن خيبته الشديد تجاه هذا الوضع المؤسف قائلا مابال هذا البلد وما خطب تلك المناظر الخلاّبة التي تحولت إلى ركوم وأطلال، بعد أن كانت صالحة للعيش والمآل:

ما للدّيار تراءى وهْي أطلال　　هل خفّ بالقوم عنها اليوم الترحال؟
كانت بها السّمرات الخضر زاهيةً　　واليومَ لا سمرَ فيها ولاضالُ
هل هَدّ بنيانها من فوقِ صاعِقَةٍ　　أو هَدَّ بنيانها من تحت زِلْزَالُ
شَبَّ الحريقَ بها لَيْلا مُشَيّدة　　فما أتى الصبحُ إلاّ وهْي أطلالُ
دار السّعادة أمسَتْ من تحرّقِها　　دار الشّقاء وقد ضاقتْ بها الحالُ

(الديوان، ۲۰۱۲م: ٤٤۱).

ويتفجّر شاكيا ومتضجّرا ممّا هو عليه من الحرج والارتباك الذي جعله يتنقّل من بلد إلى آخر حيث لا يدري مكانه الذي ينزل فيه، حتّى بلغ أمره من كثرة الترحال أنّه إذا نزل في بلده ظنّه الناس أنّه نزل غريبا مغتربا:

قد طالَ شَكوايَ من دَهرٍ أُكابِدُه أمَا أُصادِفُ حُرّا فيه يُشكِيني
كأنّني في بلادي وإن نزلتُها نزلَتْ منها بِبيتٍ غيرَ مَسْكوني
حتّى متى أنا في البلدان مُغْتَرِبٌ نوائبُ الدّهرِ بالأنياب تُدمِيني

(المصدر نفسه، ۴۲۸).

وكذلك نرى أنّ الخليلي يصوّر أيام هجوم الروس واحتلاله لأفغانستان أنّ هذا الشعب الضعيف والمعدِم ذاقوا مرارة جميع المظالم والمفاسد التي تمّ تحميلها عليهم، ولكنّهم شعب قاوموا هذا الاستبداد بأيادٍ عزلاءَ وبقلوب أقوِياءَ، قاتلوا وقتلوا ولم يستسلموا لنيران العدوّ المحتلّ كأنّهم يتلاعبون بالموت خرجوا حفاةً عراةً يبحثون عنه:

به هر جا نعرهٔ تکبیر و چادر های خون افشان
یکی در شعله ها سوزان یکی در موج خون غلتان
یکی را تیغ برسینه یکی را تیر برچشـمان
یکی را درجگر خنجر یکی را در دهان پیکان

(چهرقانی، ۱۳۹۳: ۱۸).

ويستمر قائلا بأن الكارثة أكثر ممّا يتوقّع، وأنّ هذه الحرب ومصائبها الأجلاّء لا تخُصّ دولة إسلاميّة واحدة فحسبُ؛ إنما هي نار تتسع لهيبها وتعقب البلاد الإسلاميّة الأخرى كذلك، بدءا من جَيْحون وخيبر وصولا إلى فرات وخانقين:

راه دشوار است وشب تاریک دشمن درکمین بر فضا افگنده سایه ابرهای سهـمگین
ازلب جیحون به خون غرق است تاشط فرات وز در خیبر در آتش میسوزد تا خانقین

(چهرقانی، ۱۳۹۳: ۱۸).

الخاتمة

وفي الختام يُذيّلُ البحث بأهمّ ما توصل إليه الباحث في دراسته حول الشعر الوطني، وما يركّز عليه الشعراء الوطنيّون في قصائدهم، وهو أنّ الوطنية تتمتّع بمكانة عالية في الفكر الإسلاميّ، وأنّ الأغراض الشعريّة التي يتناولونها هولاء الشعراء تعدّ أحد أهمّ المفاهيم الأدبية الرفيعة، لترشد الناس إلى إحدى مهمّاتهم الاجتماعية والإنسانية، بخلاف من الذين زعموا أنّ مفهوم المواطنة غريب تماما على الإسلام.

وتبيّن للباحث أنّ هذين الشاعرين العظيمين، قد ساهما سهما وافيا في سبيل إصلاح المجتمع وحلّ القضايا الاجتماعية والسياسية، وفي حين أنّ أفغانستان والعراق كانتا تحترقان في لهيب الحروب الأهلية، وكان الشاعران متحدثين باسم شعوبهما؛ فلم يكن الشعر لديهما وسيلة للتكسب، ولم يتاجرا بأقلامهما، بل الشعر كان سلاحا مدافعا يخرج من ألسنتهما، وكانت نظرة الشاعرين للشعر هو نظرة الكلاسيكين في الشكل والمضمون، حيث حاول كلاهما أن يكون الشعر صوتا رفيعا للمجتمع، وهو رسالة الشاعر، فلا بدّ أن يحمل في طيّاته قيما تربويا وإصلاحية اجتماعية.

وإذا نظرنا إلى الشاعرين من ناحية الأسلوب، فأسلوبهما أسلوب قديم من حيث الشكل، وأمّا من ناحية المعنى فالشاعران استطاعا أن يبتكرا معاني جديدة تتماشى مع الأغراض الشعريّة الحديثة، تلائم ومقتضيات العصر. والفارق الأساسي بين الشاعرين هو أنّ الشاعر الرصافي يركّز في وطنيّاته على مفهوم العُروبة ويفتخر بقوميته العربيّة، والمواطن عنده من هو لغته عربيّة، كما أنّ مفهومه عن الوطن هو ما يعرف بشبه جزيرة العربيّة، ولكنّ الخليلي هو ما ينفرد عن الرصافي بكونه ذات رؤية واسعة؛ والوطن عنده أوسع ممّا يتصوّره الرصافي، فيعتقد الخليلي أنّ المواطن كلّ من هو ينضم تحت دوحة الإسلام، وكلّ ما يتصف بالرقعة الإسلامية فهو وطن له، ولأجل هذا نرى أنّ الخليلي يشاطر الشعوب الإسلامية في همومهم ويستغيثهم في مناجاته.

المصادر والمراجع

1- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي ، الجامع الكبير سنن الترمذي، المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت
2- أسماء وهاب، تجليات الرفض والتمرد في شعر معروف الرصافي، رسالة جامعية، جامعة البويرة، الجزائر. عام ٢٠١٤/ ٢٠١٥م.
3- إقبال لاهورى،كليات محمد اقبال لاهورى، به سعى واهتمام پروين قائمى، الناشر: پيمان، الطبع الثالث، بلد النشر: تهران.
4- خليل الله خليلي، ديوان خليل الله خليلى، المحقق: كاظم كاظمي، الناشر: عرفان، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ ش، طهران
5- خيرالدين الزركلي، الأعلام، أشهر الرجال والنساء العرب المستعربين والمستشرقين، الجزء الثامن، الطبعة الثانية،(د- ت)
6- الدكتور سيد محمد رضي مصطفوي نيا،الوطنيات في أشعار ملك الشعراء بهار ومعروف الرصافي، أبو الفضل رحمنى، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة الخامسة، العدد الثامن ٢٠٠٩م/ ١٤٣٠.
7- رضا چهرقانى وإسماعيل شفق، خليل الله خليلى، شاعر بيدارى وپايدارى، السنة الرابعة، العدد الثاني.
8- سارا مجددي، سيماي استاد خليلي در آيينه أشعارش، ١٣٧٠ش، نشريه راستگويان، دنمارك.
9- عبد الحي خراساني، سرود خون، مطبعة رشيدية، (ط) الأولى، (د–ت) ١٣٦٨.
10- محمد سرور مولائى، برگزيده شعر معاصر أفغانستان، الناشر: انتشارات رز، الطبع الأول، طهران – ايران.
11- محمد نسيم فقيري، أشعار جهادي، ١٣٦٧ ش، كميته فرهنگى جمعيت إسلامي.
12- مصطفي السقا، شرح ديوان معروف الرصافي، ، الطبعة الرابعة، ١٩٥٣ الناشر: دار الفكر العربي.
13- معروف الرصافي، الأعمال الشعرية الكاملة، (٢٠٠٦) الناشر: دار العودة، بيروت.
14- معروف الرصافي، ديوان معروف الرصافي، مؤسسة الهنداوي للثقافة،(د ت).

فصلنامه مطالعات علوم اجتماعی
دوره ۸، شماره ۴، زمستان ۱۴۰۱، صفحات ۲۴۰-۲۵۳

الشعر الوطنيّ لدى الشاعر معروف الرصافي وخليل الله الخليلي

(دراسة تحليلة مقارنة)

الباحث: **عبد الرحمن "نديم"**
الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية، بجامعة بلخ. _ أفغانستان
Rahman.nadeem.1992@gmail.com

الملخّص:

من المعلوم أنّ الشعر من المظاهر المؤثّرة التي تستنهض به هِمَمَ الشعوب والأجيال، ويتحقّق في قالب هذا الكلام السحريّ جميع الأغراض المطلوبة، ومما تطرّق إليه الشعراء في كلامهم هوحب الوطن الذي أصبح يحظى إلى حد كبير من اهتمام الشعراء والأدباء في العصر الحديث، ويمتاز هذا الشعر بالخلوص وصدق العاطفة والأحاسيس المتأججة التي خاضها الشاعر القديم والمعاصر، معبّرا عن حُبّه وغِرامه تجاه الوطن، وقد شكّل هذا اللّون من الشعر شطرا كبيرا من ديوان الشعر العربيّ المعاصر، والوطن هو ما ينظر إليه في القاموس الإسلامي بالناموس الأعظم، وله مكانة كبيرة في قلب أيّ مواطن؛ لأنّه بمثابة الأمّ فكلّ ما يتعلّق به يَهَمُّ جميع أبنائه، أينما حلّوا وارتحلوا، والشعراء الوطنيّون هم الذين يُغنّون بعشق الوطن والحنين إليه، ويتناولون القضايا الوطنية من زوايا مختلفة، وبمفاهيم متنوّعة، ويتمتّعون بأحاسيس مُشْبعة بمعاني الحبّ الغرام والإيثار، ومن هؤلاء الشعراء الذين ماتوا وهم يكنزون هَمَّ الوطن في سُوَيْداء قلوبهم، هو معروف الرصافي شاعر الوطني العراقي والأستاذ خليل الله الخليلي شاعر الثائر الأفغانيّ، اللّذان عاشا في فترة زمنيّة واحدة، وسلكا مسلكا يتميّز بالرشادة والاستنهاض، ويحرصان على تطوّر الوطن وتثقّف أبنائه، كما أنّ حبّ الوطن والحثّ على عمرانه والسعة والرخاء لمواطنيه تُعدُّ من المضامين الإسلاميّة القيّمة، والتي تحدّث عنها الشاعران كثيرا في قصائدهما وقد احتوى هذا الموضوع قسطا كبيرا من ديوان الشاعرين.

الكلمات المفتاحيّة: معروف الرصافى، خليل الله الخليلى، حبّ الوطن، المقارنة.